دعوة عرفات الحاعشات بغداد

مشروع إعمادة بنماء المحدينة المحدورة في الكرخ

دعلي تبويني

thwanyali@hotmail.com

(بـأسـم الله والحمـد لله، والأرض يـورثهـا مـن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) جملة قالها أبو جعفر المنصور ليشرع العمل بعدها في مدينته بغداد المدورة في الكرخ. أختير لها أسم "دار السلام" وكنيت بـ"صـرة الـدنيـا" ثم بـ"أم الدنيا" وأطبقت شهرتها الآفاق وتقمصت أسمها مدائن الأرض تيمنا وشغضا، حتى أن سابقتها القسطنطينية أمست (بغداد البسفور)، وكنى كل مرقه وباذخ ب(متبغدد)، وظنتها أُجيالً من الغربيين بأنها بابل العتبقة الماكثة كالعنقاء. شرع العمل في بناء (المدينة المدورة) يوم ٢٣ تموز ٧٦١ م. وانطلقت الورشة بمئة الف عامل يشرف عليهم المعمار الحجاج ابن أرطأه

وبمساعدة عبدالله بن محرز وعمران بن الوضاح وشهاب بن كثير وبشر بن ميمون. و اشرف على إدارة المالية وتخمين الجدوى الفقيه الأعظم أبو حنيفة النعمان الذي كان قد استحدث طريقة رياضية سبق واستعملها في بناء واسط. وتصاعد مدد المدينة وتوسعت نحو الرصافة تباعا ووطأ عدد ساكنيها المليون ونيفاً، وعانت من الحروب والقلاقل والفيضانات. ثم أهملت المدينة المدورة و أفل . نورها بعد أن سقطت بغداد كلها بقاضية

لقد استعمل في تنفيذ البناء نظام الفرق العاملة بالتوازي و شرع أولا ببناء القصر والمسجد الجامع أما الأسوار والارباض فقد قسمت الى أربعةً قواطع يشرف على كل منها أحد المهندسين .و أمسى رمزيا وقدسية مركز دائرة المدينة نفسه مركز دائرة القبة الخضراء التى سمت لأربعين مترا، في قلب القصر الذي أبعاده ٢٠٠ م مربع أما المسجد المحاذي للقصر

المغول في ١٠ كانون الثاني , ١٢٥٨

من جهة القبلة فأبعاده ١٠٠ م مربع. ويطوق البناء خندق مائي عرضه ٦م ينهل ماءه من نهر كرخايا. وكان الّبناء يشتمل على ثلاثة أسوار متتابعة ، الوسطاني فيها أضخمها واكثرها سمكا وارتضاعاً وتعلوه القباب فوق الطاقات الموالية للمداخل. ويحيط بكل سور فيصل فارغ من البناء يدور

حولها بغرض حركة الحرس الدائرية . وكانت للمدينة أربعة أبواب بأسماء البلدان المتحهة إليها وهى الشام والكوفة والبصرة و خراسان والمداخل من النوع المنكسر لغرض الحماية وتعلو كل مدخل قبة باسقة لغرض الاستدلال عليه من بعد . أما المرافق السكنية والخدمية للعامة فتقع بين السورين الأوسط والداخلي

وجاء مخططها على شكل أرباض قاطعية

الشكل مقسمة للدائرة وتشتمل على ديار

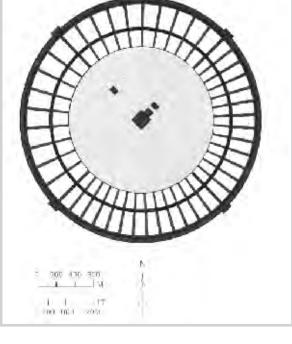
إرتفاعها من طابق واحد حتى ثلاثة طوابق

تطوق في العادة حوشاً سمائياً، وهي سنة

بنائية واردة من الأعراف التخطيطية

العراقية ولقد أستعمل الطين بصيغه الساذجة والطوبية ثم الأجرية أو المحروق (صخريج) بحسب الحاجة له. وأكتنفت بناء الأسوار مساند نصف أسطوانية كما هي واردة في البناءات العراقية تحاشيا لظاهرة الإنبعاج الهيكلي، الحاصل في الحيطان الصفيقة، بما يحاكي تماما أسوار مسجد سامراء وقبله حصن الأخيضر. وقد سقفت البناءات بالعقود والطوق والقبوات وكذلك القباب واستعمل الحد الأدنى من الخشب، لاسيما في التسقيف بطريقة الجسور الخشبية على بحور محدودة ومعقودة بالأجر في حرم المسجد واروقته، وكذلك في أساطينه (الدلكات) . وكانت الأساطين تعمل عادة من قطعتين معقبتين بالعتب والغرى وضبات الحديد . وأستفيد في التنفيذ من خاصية ملاط الجص العراقي الذي يتصف بسرعة جفافه (شكه) كمونة للصق الآجر أما اللمسات الفنية فجسدها الجص البسيط والملون (الفريسكو) والمنقوش بالحفر وربما بعض عناصر الريازة بالآجر. لُقد مكثت المدينة صامدة ردحا ،و سرعان مـ دب بها الخراب بعد أن أنتقل الخاصة والعامة

منها الى الرصافة ثم الكرخ ثانية و امست مدينة بغداد المنتقلة، تأخذ شكلًا شريطيا مسترخيا على جنبات مجرى النهر. وجاء خرابها تباعاً متداعيا من الصراعات السياسية وحروب الأخوين الأمين والمامون لا سيما حصار ابن طاهر قائد جيوش المأمون لها عام ٨١٤م وضربها بالمنجنيق . ومما زاد الطين بلة الإهمال الذي أصاب المدينة عند انتقال العاصمة منها الى سامراء لمدة نصف قرن على يد المعتصم عام ٨٣٥م. وفي عام ٩٤٠ م تهدم قصر الذهب بسبب الإهمال والمطر الشديد، سبقه الخراب الذي خلفته ثورة المساجين على الخليفة المقتدر عام ٩١٩م وتكسيـرهم أبـواب المدينـة، ثـم فيضان دجلـة المهول عام ٩٤٢ م، كما يذكر ذلك المقدسي و أدى الأمر الى سقوط الطاقات ثم تلاه اقتلاع بيبانها الحديدية من قبل معز الدولة البويهي ونقلها لقصره عام ٩٦١ م. ويبقى وصف ابن بطوطة لمسجدها، الذي زاره عام ١٣٢٧ من أواخر التواريخ لآثار المدينة المدورة التي درست



وفي القرن العشرين وفي زمن المخاض الجديد لبغداد ،اجتهد لفيف من الباحثين وعلى رأسهم يرد اسم هرزفلد وكريزويل ومصطفي جواد وأحمد سوسه ،الذين لم يتركوا وصفاً مدوناً لها دون إخراجه وأهمها ما ذكره الخطيب البغدادي وأبن الجوزي وياقوت الحموي وأسحق الأزدي واليعقوبي. وبعد التمحيص والمقارنة في الروايات، ومحاولة تحديد قطر المدينة من خلال إعادة قراءة المقاسات التي حددت بالذراع والذي قدر بـ٥١ سم تقريبا .ومن خلال تحليل حساب المحيط استقر الرأي على أن قطرها يبلغ ٣١٥١ م وهذا المقاس أعتمده المعمار (لسترانج) في إعادة تخطيط المدينة وتجسيد صورتها الأولى.وقد حاول إظهار المساقط كلها والتفاصيل البنائية والزخرفية في الرسم ، بما يمكن أن يكون اجتهاداً لا يداني، بما يتطلبه ذلك من خيال جامح، يرافقه التبحر في ماتبوحه مواد البناء المستعملة ومقترنا وملما بخصوصيات طرز البناء المستقاة من المقارنات

سامراء والرقة وقصر الأخيضر. وقد حث الخطى المعمار والحضري الأنكليزي كريــزول (١٨٧٩-١٩٧٤م) والعــالـم العــراقـي د.مصطفى جواد (١٩٠٤-١٩٦٩) كي نهاية الأربعينيات بمحاولة العثور على اثر يؤكد ما

التاريخية ،كما الحال في الكوفة وواسط و

ذهبت إليه الأخبار. وقد نجحوا في العثور على جزء مردوم من الأسوار الخارجية وبعض الطاقات الداخلية في منطقة العطيفية على جانب الكرخ وفي مكان يقع وسط بساتين النخيل، لاسيما المتاخمة للشاطئ وجزء منه يمتد تحت البيوت الشحيحة الموجودة حينئذ، مما استوجب التوقف عن البحث بسبب ما كان يحتاجه ذلك من طاقات لفرق

HAM BULLY WIN

h = 5 = 5 = -

N W & W W SI

to the service to the

6-9-6-6-6

لاسيما أننا نسمع اليوم عن مشروع إلغاء

نطاق سكك الشالجية التي تقع تماما على

تخوم الموقع،وسيوفر لنا هامشاً جيداً من

حرية الإسقاط. وإذا أقتضى الأمر يمكن تلافي

بعض الصعوبات بتغيير البنية التخطيطية

للأحياء السكنية، ان يتحرك بإتجاه أرض

مطار المثنى الخالية الخاوية على عرش صرح

مسجـد ضـرار، أراده صـدام أن يكـونِ دعـايــة

'لأيمانه". وهكذا فأن نطاقاً إسقاطياً بحدود

أربعة كيلومترات، يمكن أن يتوفر في هذا الموقع

الذي يقع جزء منه مطابقا لموقع مدينة

المنصور المدورة والأضير في أن نمرر نفقاً من

ويكتسي المشروع أهمية كونه نموذجا رائدا

للمدن العراقية المدورة ، وقدوة بنائية عالمية

أستلهمت منها بناءات ومدن القرون

الوسطى،حتى لنجد ذكرها في كل مناهج

الدنيا المعمارية. ويمكن أن يكون دورانها

الكامل وهيئتها وصرحيتها، مغامرة معمارية

بحد ذاتها، تعيد للأذهان خيال العراقيين

الجامح، ونزعة بناء الزقورات وبرج بابل.لهذا

Reconstruc-) يمكن أن يشكل إعادة بنائه

(tion)اقتفاء بالمواصفات التخطيطية التي

أنجزها (لسترانج) بحذق، وزيادة المعطيات

التي أفرزتها الدراسات الحفرية المقارنة من

خلال لجنة دراسات موسعة، بحيث تشكل

قاعدة لخطة رصينة ومنهجية للبناء. ويمكن

ن أجل أقسي...

تحته لجزء من الطريق السريع المتاخم.

أركيولوجية كبيرة وتمويل سخي من الدولة. ونقلا عن صحف الحكومة البعثية عام ٢٠٠٠ ، أشارت فيه الى أن جزءا من تلك المدينة موجود حاليا تحت مياه نهر دجلة الذي غير مجراه قليلا خلال السنوات الماضية. و أوضح المسـؤولـون عن البحث الحفـري:(إن الأمـر يتطلب مبالغ ضخمة وعملا كبيرا لرفع مئات الألاف من الأمتار المكعبة من الأتربة والأنقاض ويحتاج الى توفير الآليات الاختصاصية ،وأن كشف الموقع يدوياً وبالمعاول أمر مستحيل).جاء الخبر أيام التسول البعثي إبان الحصار الكافر،طمعا في تمرير تجهيزات حفر ضخمة تحتاجها السلطة في مغامراتها حينئذ. ونجزم أن الأمر برمته كان بعيدا عن الواقع بسبب أحتكار شاطئ النهر لعناصر

السلطة، ولايمكن مساسه. إذا كـان النهــر غيــر مـســاره وأكل جــزءاً من الحصن المدور، فلا ضير في أن نزحزح البناء برمته الى داخل البر البغدادي، بإتجاه الغرب،

أن تؤخذ بالحسبان بعض التحسينات في الأداء الهيكلي، و التغييرات والإضافات في موقع المشروع ،على أن تحترم المقاييس الفنية في عمليات الترميم ولو الظاهرة منها، كاستخدام نفس مواد البناء التي أنجزت به في حينها مع تحسينات تتعلق بتقنية الإنجاز.

أما من الناحية التخطيطية فريمًا يربط بمحاور خضر موشاة بالنخيل والمياه وترفيهية تربطه بجبهة نهر دجلة من جهة الشرق وبالأحياء المحيطة من الجهات الأخرى التى تكتنف إزدحاما سكانيا سيشكل متنفسا ترفيهيا لها، ومحاور أخرى تربطه مع حديقة الزوراء، وتسهل له حركة السيارات، ويضاف له مشروع مواقف سيارات كفوء وعصري. ويمكن أن يخطط له أن يتصل مع مركز بغداد والكاظمية والمنصور من خلال مترو أنضاق خاص والأهم في الحبكة التخطيطية أن يرسم له برنامج ناضج وكضوء للجدوى الإستثمارية وإستغلال الفضاءات المعمارية المتعددة. ويستعمل البناء بنشاطات ترفيهية وثقافية وإقتصادية ومهرجانية ورياضية وحتى سكنية وخدمية وترويجية، وإعلامية تعود بريعها لتعويض حجم الاستثمار الضخم الذي أقتضاه المشروع ،والذي سينشط حتما حركة السياحة الثقافية بما يثيره من ذكرى لدى الزائر بخيالات الف ليلة وليلة.

سوف يكتسي المشروع شهرة سياحية، تحتاجها بغداد في قادم أيام النماء، غير تحربكه للإقتصاد خلال مدة الإنجاز والأهم أنه يعيد لبغداد بعضاً من إعتبارها التاريخي بعد الإهمال والإجحاف الذي لحق بها لسبعةً قرون عجاف. ولاننسى أن مشروعا كهذا يحتاج الى طاقات مالية وبشرية كبيرة، وسوف يكون أكبر مشروع إعادة بناء لمدينة درست في التاريخ،وأجزم أن العراق أحسن حالا من بولونيا مثلا حينما عزمت على إعادة بناء المركز التاريخي لمدينة وارشو العاصمة(ستارا مياستا) التي دمرتها آلة الحرب النازية

ومحتها من الأُرض. كل ذلك يحدونا الى التفكير جديا في تبني مشروع عرفان موجه من محبي بغداد والعارفين بجزيل فضلها على الدنيا، وجبرا لخواطر من يتباكى على ضياعها اليوم في الشرق والغرب من العرب والعجم. وريما يلجأ العراق الى إطلاق حملة عالمية تتبناها منظمات الثقافة كاليونسكو والرأي العام العالمي، مثلما حصل مع مشاريع عالمية آخرها كان مشروع مكتبة الاسكندرية، التي كان صدام الأكثر بذخا فيه على حساب جياعً

ربما يكون ذلك قريبا ،يسبقه إعلان للنوايا ودعوة مفتوحة للتبني ، بما يمكن أن يمثله هذا المشروع "الحلم" هدية عرفان مقدمة من محبي بغداد بتاريخ ٢٣ تموز ٢٠١١ بمناسبة عيد ميلادها الـ ١٢٥٠ ، أطال الله بعمرها.

رجاء الصانع. . تفضح أسرار السعوديات في " بنات الرياض "

في الرياض، وعندما يزاح الستار ينجلي أمامنا مشهد بكل ما فيه من أشياء كثيرة، مضحكة ومبكية بكل يل التي لا يعرفها مخلوق من خارج هذا

وارد بدر السالم

قلما حظيت رواية خليجية من شهرة ونقد وتقريع وهجوم وإعجاب، مثلما حصل لرواية (بنّات الرياض) للسعودية الشابة رجاء الصانع والتي حصدت الرقم الأول في مبيعات عام ٢٠٠٥ ومثل هذا التناقض الذي شارك به القرّاء لأول مرة في تاريخ الرواية العربية يشيّ بـأن الـروايـة وصلت إلى أهـدافهـا بيسـر وسهـولـة، وقـد . حققت نجاحها في الأنتشار المطلوب، الأمر الذي يستدعى منا الوقوف أمام هذا العمل الذي أثار الكثير من الضُّوضاء الإعلامية بمشاركة واسعة من المثقفين ورجال الدين على حد سواء•

وجاءت في الوقت الذكي" ، وهو دفاعٌ صارخ لناقد عُرف عنه اجتهاده النقدي وسعيه إلى تَـأسيسٌ نقد ثقافي عربي، ولا شك في أن الغذامي أدرك بعد قراءة الرواية أن رجاءً الصانع قد اخترقت التابو الاجتماعي السعودي وقفزت على المحرمات اليومية وقدمت عملها كوثيقة من وثائق المجتمع الذي تكبله قيود اجتماعية كثيرة، لذلك جاءت اشتغَّالات الرواية على هذا الوتر الحساس وهي تدرك حجم المغامرة الأدبية التي انقادت إليها بشجاعة أدبية تحسد عليها •كما قال الشاعر والروائى عَازِي القصيبي": في عملها الروائي الأول تقدم رجاءً الصانع على مغامرة كبرى، تزيح الستار العميق الذي

عسالم

الفتيات المانعيا المانكة المانكة بنات الرياطه الأرستقراطية ، وتطل الكاتبة كل أسبوع بتطورات

الساحر المسحوّر، هذا عمل يستحق أن يقرأ وهذه روائية أنتظر منها الكثير ••ومن ثم تحولت الرواية إلى مادة جدلية دافعت فيها الكاتبة عن روايتها بجدارة أكثر من مرة ونفت أن تكون روايتها حملة ضد فتيات الرياض، مؤكدة في الوقت نفسه أن "ثمة تشابها مع الواقع" • وكان الشَّاعر عبدالرحمن العشماوي. ذوَّ توجهات إسلامية. اعتبر هذا العمل الأدبي " برمته ضعيفاً لغة وأسلوبا" والرواية "خطيئة أدبية" مطالباً الكاتبة "بإعلان براءتها من الرواية" غير أن رجاء الصانع نفت عزمها الاستجابة لذلك المطلب داعية الأدباء والنقاد "النظر إلى الأعمال الروائية على أنها مزج بين الواقع والخيال" • وقد وصفت الكاتبة ريم الصالح هذه الرواية بأنها "واقعية حقيقية بعيدة عن الإسفاف" إلا أن الكاتب فهد سعود اعتبر الرواية صرعة، كما اعتبر الناقد محمد العباس أن روح الرواية أو لا وعيها ربما، يعكس جانبا من الحداثة الآجتماعية، والرغبة الأكيدة في تحطيم مفهوم البيوريتانية التي يتبناها الرجل كمعتقد لتأثيم كل علاقة خارج أطر اللؤسسة والأعراف الاجتماعية، رغم تورطه في تحديها الصوري •وكان الدكتور صالح بن معيض الغامدي استغرب إصرار الكاتبة على اعتبارها "أن هموم هذه الشريحة من الفتياتِ وتطلعاتهن تمثل فتيات الرياض أو السعودية" ىشيراً إلى أن ربط مدينة الرياض بأحداث وشخوص أقل ما تـوصف به أنها صادمـة أو في الأقل غيـر عـاديـة أبداً، وقال عبدالمحسن الرشود: إن هذا العمل الأدبي الجميل يفيد أي شاب يريد أن يتعرف على مرتكزات الفكر النسوي العاطفي المعاصر أو يريد الزواج ويتعرف على الآليات الفنية للحصول على إعجاب الفتاة الإنترنتية •هو بمثابة دليل عاطفي اجتماعي إلى

ومكان اللقاءات، وقالت مها فهد الحجيلان: إن الرواية تحاول الكف عن المسكوت عنه في المجتمع• أما رجاء الصانع فتقول: بنات الرياض تأريخ لجنون فتاة في بداية العشرينيات أشعر وكأنني أبيع القراء تذاكر لدخول عقلي والتجوَّل فيه بحرية! روايتي الأولى هي هويتي الحالية وجواز سفري، مُزدحمة بأفكار وأحلام ومخاوف ومطالعات وأحداث جمعتها خلال عمر قصير •هي فضح مشاغب لأسرارنا أنا وصديقاتي، هموّمنا، أفراحنا، أحزاننا، أمانينا الكبيرة الَّتي لا نُعترف بها أمام الغرباء، دموعنا التي لا نذرفها سوى خلف أبواب موصدة •أجد نفسي أقتبس ثانية من روايتي تعبيراً ينطبق علي وهوّ أنني (إسفنجة) أمتص ه يمربي من مواقف عابرة في هذه الحياة قد لا يهتم بها الآخرون لبساطتها وتكرارها •وقفت الرواية على فرشة اجتماعية واسعة من الحياة السعودية في أسرارها اليومية عبر استخدام تقنية (الشات) الكومبيوترية التي أحدثت ضجة في المجتمع المحلى السعودي، بسبب فتَّاة مجهولة ترسل نهار كلُّ جمعة "إيميلاً" إلى معظم مستخدمي الإنترنت في السعودية تفضح فيه أسرار صديقاتها من الطبقة

وأحداث شائقة جعلت الجميع بانتظار يوم الجمعة

للحصول عليها، وتنقلب الدوائر الحكومية

والمستشفيات والجامعات والمدارس صباح كل سبت إلى

الطريق دون خسائر عاطفية كبيرة •كما أنه يشي

بالأشياء التي تفكر بها فتيات هذا الجيل، من طرقً

تعارف، وأسلوب محادثة، وأناقة، وعطور وإكسسوارات،



الغريبة قامت بخلق ثورة داخل المجتمع السعودي الذي لم يعتد مثل هذه الأمور، وبعموم الرواية، ولا تريد أنَّ ندخل بتفصيلاتها، كانت الروائية تفِرز بناتها المراهقات على أنهن متمردات ويعانين ضغوطاً نفسية واجتماعية كثيرة ويأملن أن يغيرن من الواقع ولو بحده الأدنى، للمشاركة بالحياة من أبوابها الواسعة، وظلت الرواية تدور في هذه الحلقة وتستنتج علائق البنات الأربع من خلاَّلُ زيجات غرامية قد تفشِّل وقد تنجح، واعتمدت رجاء الصانع منهجاً فنياً واحداً على مدار الرواية، وهو (الإيميلات) مستفيدة من هذه التكنولوجيا الحديثة كُشكل جديد في الرواية العربية، أي أن منهجية الرواية الفنية كانت تستند إلى جدار من الرسائل التي تبعث كل يوم جمعة إلى مشتركي الإنترنت، بمعنى أن (بنات الرياض) هي رواية رسائل ، وهذا ما جعل هذه الطريقة تبدو مملة ومكررة، لاسيما أن الصانع استخدمت أكثر من لهجـة محليـة وعـربيـة وأجنبيـة، ممـا جعلهـا لاّ تنسجم كثيراً مع التلقى العام) •بنات الرياض) رواية اجتماعية نفذت الى قلب المجتمع السعودي من بوابة الرياض وكان هذا النفاذ مدروساً بعناية ومُخططاً له إلى حد الإتقان، والمؤلفة وهي تشكّل روايتها الأولى من علاقات اجتماعية سرية وتفضحها عبر الرسائل الأسبوعية، كانت تدرك حجم الخاطرة في مجتمع ذي ثوابت معروفة، لكنها كانت تراهن على الذائقة المنفتحة في المجتمع، وهي ذائقة ثقافية في مقامها الأول، لكن .. المفاجأة أن العامَّة من القراء أذكوا روح الجدل الذي لم ينته بعد •فكرة الرسائل الإيميلية جريئة كتقنية روائية جديدة، ولكن السؤال: هل أرادت رجاء الصانع أن تحاكم الواقع أو أن تفضحه عبر هذه الرسائل الشائعة في المواقع الإنترنتية المنتشرة في المجتمع السعودي؟ تفصيلات الرواية كثيرة ومتشابكة، والفتيات الأربع اللواتي يشكلن محور الرواية هن النموذج الذي بنت عليه "الصانع" مجتمعاً مخملياً يبحث عن ذاته وسط العلاقات اليومية، ولم تكن الصانع قادرة كثيراً على لم شتــات الــواقع عبــر فتيــاتهـا الأُربِع، بتكثيفه روائيــاً واختصاره بما يسمح للرواية أن تحيط بموضوعتها، إلا أنها آثرت الاسترسال الطويل وتتبعت خطوات الفتيات بطريقة الحكي والقص التقليدي، وهذا ما أفقدها الكثير من خصَّالها الجمالية، وبدت الرواية وكأنها حشدٌ من السطور المتوالية •كما بدت الفتيات الصغيرات أسيرات الروائية وأسيرات الحكي المتراكم

كما لو أنهن بتن في ذمة الدكتورة الجميلة • ورجاء

وجدتُ أمّي حانقة، حانقة عليّ جداً، كان وجهها المحصور بُفوطتها الأبديّة السوداء ممتقعاً، وكان الظّلام يملأ حفرتي و وجنتيها، كانت قد أحضرتني إليها في الوقت الذي تملكه هي، ولا أملك منه، أنا، ولا حَتَّى ثانية صغيرة، وبنفس عذَّابها الصموت الذي أِخْرجِتنِي به إلى الدنيا وجَّدتُها، وارتعتُ حين رأيتُ تقاطّيعَها نهُّبَ قناعتها الأليمة الرّاسِخة بأنُّني المسؤول عن إقامتها في هذا المكان منذ أربعين عاماً... لَم أَسْتَطَع أَن أَقبُّلُ يدُها أو أرتمي على قيدميها بأشواق الأعوام الأربعين، وإنقلبت لهفتي خوفاً في كلّ خطوة قدّمتني اللها وحين انتزعت يدي مني رأيت أسنانها تطبق على إصبع في كفّي اليمني، لكن لم أر الدم الذي سال وما أحسست بوجع الإصبع المعضوضة في الظلمة الباردة...

أنجاني النهار من عقاب أمّي، لكنه لم يزحزح صخرة الإثم التي جَثِمت على صدري، ورأيتُ، في نهاري النَّاجي، الملَّفقةُ التي تقلّبت، في صباح عتيق، على قرص مشتعل بألنار قبل أن ترتفع وتطير في الهواء، فتحرق في طيرانها، الهياءات الصغيرة الشاردة في الفضاء وتسقط بنارها على كفّى... تلك كانت عاقبة بكائي... ترفع أمّى ملعقة النار بطرَّف فوطتها العتيدة وتدسّها في باطّن يديّ، لتنقذ نفسها من عويلي مصدر عذابها الطويل... وهكّذا قُدّر لي أن أرى ثمرات دموعي كرات صغيرة بأغشية رقيقة تنفخها نار الملعقة تحبِّ جَلد يديِّ... كم كان عدد تلك الكرات المؤلمة التي تِلقفتُها طفولتيّ الباكية؟ كم كان عدد الملاعِق التي حِملَتُ جرعات النار وّداوتُ بها أمَّى، بـلا أمل، مرضَ بكائِو أنَّى لي أن أعرَف وأنا أجهل أعداد إلدموع التي أسقطتُها عينايّ في عمر من البكاء؟... غالباً ما كآنت عقوبة الكيُّ تنتهى بذيل طويل من العذاب، فقد كان يجرى إذلالي علناً لأكونَّ درساً لِأَتْرابي الذين كانت تيرغمهم أمهاتهم علي مشاهدةِ النفَّاخاِتِ ٱلموجعةِ التي تشوِّهِ يدِيَ الصغيرةُ، كنتَ أرتعب كلّما انتُزعَتَ يدي منّي وغُّرضَتُ بْكُرَّاتِها الرَّخُوة وقد انبتْقُنَ من بطنَ كفّي وظهرها، وتَدلّيْنَ بَأغَشَيتهنَّ الصّفرِ إِلواهنة، وكان شعوري بالمهانة يُذكي رغبتي في البكاء... كنتُ أُقَاوِم ناهبي يدي، وَأَكَافِح الأُصابِّع الصَّغيرةِ الَّتِي تِنقذفٍ كالدبابيس لتفقأ كراتي المنتفخة فلا أفلح إلا بعد أن أتكبّد موجة عاتية من البكاء، حينذاك أطاع ويكون بمقدوري أن

كانت أمّي تخذلي لتزيد من الامها، وكنت ألمحها تبكى بلا دموع على طست تتصاعد من قاعه أبخرة مائه الساّخن فيما كانت أصابع يديها العاريتين إلى المرفقين تتتفان بلا هوادة ريش دجاجة غرقت في الحوض المعدني الحامي... كنت أراها بدموعي تمسح ندمها بساعدها المعروق بالريش المِيلٌ كُلُّما وجِدت عزاءها فيما تقوله أمّهات أترابي: "كان اللَّه في عونك" .

أدفن يدي التي عوقبتُ تحت إبطي...

لم يرحل عنّي بكائي إلاّ بعد أن وسم وجهي بعلاماته، جفنين تورَّما، وشِفِيِّينَ تهِدِّلَّتا، وأنف انتفخت أرنبتاه، وحزّ ينطلق من بين حاجبَيّ شاقًا جبهتِي، وبين هذه العلامات كان يشقّ على ابتسامتي أن تجد مكاناً على صفحة هذا الوجه الباكي... شغلتني عقوبة الليل عن كلُّ شيء، وفكِّرتُ فِي أمِّي، وقلَّتُ: لا بدّ من أن يكائي البغيضِ يقيم الآن معها ويّنغّص عليها مكانها الذي فرَّت إليَّه متخليةً حتى عن حياتها".

وصحتُ من دون أِن يسمعني أحد: كيف أستعيد أمّى الحانية؟" كانت أمّي ذكيّة، فيوم رضيت بالرّحيل وغابت تركت توأمتها

في مكانَّ ليس بعيداً عنَّى لتحوم حولي وتتحقَّق من علَّة بكائي التي قد يكون مصدرها رغبتي في طردها، كما كانت تظن، وبعقل شعوري رأيت تلك التوأمة، وعرفت أين تقيم، وقررت أن أزورها من أجل أمي، وهكذا مضيت إليها مُجلًلاً بقناعتي الخيفة التي تقول لي إنّ أمّي تسكن في توأمتها... وكان عَلَى، من أجل أن أدعم نواياي الطيبة في زيارتي، أن أذهبٍ إلى السوق... فاشتريت فوطَّتيُن سوداوِيُن، وجوَّربيُن رقيقين، وبلوزةٍ مِن الصوفِ بصفَ طويل من الأزرار العريضة اللامعة، وخفّيُن خفيفيُن وقنينة عطر بدينة نامت في صندوق مستطيل من الكارتون الصقيل الزاهي، ووضعتُ هدايا أمَّى التوأمة في كيس نايلون مزيَّن بالألوآن وأطبقت بكفي على عروتيه، كانت يدي تؤرجع الكيس الطويل فأسمع في عدمة خشخشة أكياس النايلون التي تحفظ حاجات أمّي وهى تحتك ببعضها وكأنّها سعيدة بتعرّفها على بعضها، وبلهفتها إلى أن تجتمع وتتضام وتتوحّد حين تمتلئ بأعضاء الكيان المنتظر الذي تُحمَل إليه ٰ... قرعتُ بابها فتلقاني صبيٍّ في نحو الرابعة عِشرة من العمر، وسمح لي بأن أتبعه في المجاز الضيِّق، لكنَّه سرعان ما التفت إلَّيِّ وقيَّد قدميٍّ في منتصف المجاز بقوله "سأخبرها بمجيئك". وكان علي أن أنتظر بكيسي النشوان... ومن غرفة في آخر الحوش دخل فيها الصبيّ، جاءني صوتها

ً ماذا يريد منَّى، ألم يكفه قتلُهُ أُمَّهِ ليأتى فيقتلنيَّ ؟" كان النهار الذي أعادني بَهدايا أمّي يوشك على الفناء، ولم يكن أمامي غير أن أنتظر الليل لتزورني أمّي فأقدّم لها هداياها قبل أن تشرع في معاقبتي...